منار الإسكندرية فى رؤية بعض الرحالة المغاربة

إعداد

الدكتور / السيد عبد العزيز سالم

استاذ التاريخ الإسلامى والحضارة والآثار الإسلامى المتفرغ

ومدير معهد دراسات البحر المتوسط بكلية الآداب

جامعة الإسكندرية

منار الإسكندرية فى رؤية بعض الرحالة المغاربة

كان منار الإسكندرية منذ إنشائه فى عهد بطليموس فيلادلفوس (٢٨٠ق.م. – ٢٧٩ ق.م.) أحد المعالم البارزة فى العمران السكندرى بحيث اعتبر لضخامة بنيته، وارتفاع هامته، ولما كان يؤديه من مهام عظام أحد أعاجيب الدنيا السبع، ولهذا شدت إليه الرحال، وأقبل على وصفه عدد كبير من مشاهديه، فتعددت أوصافه فى المصادر المختلفة : اليونانية واللاتينية والعربية، وقلدت صوره فى منارات أخرى ومن بينها منار قادس الذى كانت صورة مصغرة منه[1]، ورسمت صورته بالفسيفساء فى كنيسة مدن ماركو بالبندقية، وأصبح موضوعا وصفيا لدى كثير من الجغرافيين والرحالة المسلمين فى العصور الوسطى لاسيما المغاربة منهم والأندلسيون، تباروا فى وصفه، وأسبغوا عليه من فيض كتاباتهم ما جعله يحث أسطورة من الأساطير ومعجزة من معجزات العالم فممن وصفه من الجغرافيين : اليعقوبى، وابن الفقيه الهمذانى، والمسعودى وابن رسته، وابن حوقل، والبكرى، وياقوت الحموى، والحميرى، والمقريزى، والسيوطى. ومن الرحالة : الهروى، وابن جبير، وبنيامين التطيلى، والعبدرى، وابن سعيد المغربى، وابن بطوطة، وابن رشيد السبتى، والبلوى، ومن الباحثين الحديثين الفريد بتلر،

---

(١) الزهرى . كتاب الجغرافيا، تحقيق محمد حاج صادق، دمشق، ١٩٦٨، ص ٩٠، وانظر : السيد عبد العزيز سالم، تأثير منار الاسكندرية فى عمارة بعض مآذن المغرب والأندلس، صحيفة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية فى مدريد، مدريد، ١٩٨٦، عدد ٢٣، ص ١٨٤ وسحر السيد عبد العزيز سالم، مدينة قادس ودورها فى التاريخ السياسى والحضارى للأندلس فى العصر الاسلامى، الاسكندرية، ١٩٩٠، ص ٩، ٤٠.

وتيرش، وبريشيا. وقد اهتم تيرش بجمع معظم ما كتب عن المنار فى المصادر المختلفة لاسيما العربية منها، وانتهى برسم صورة للمنار ظهر فيها كبرج حجرى ضخم يبلغ ارتفاعه الكلى نحو ١٢٤ مترا، ويتألف من طابق رئيسى مربع الشكل تميل جدرانه إلى الداخل كلما ارتفعت، ويبلغ ارتفاعه ٦٠ مترا، وكان يضم بداخله عددا ضخما من الغرف يصل إلى ٤٠٠ غرفة، ويعلوه طابق مثمن الشكل ارتفاعه نحو ثلاثين مترا، ينتهى من أعلى بشرفة، ويعلوه طابق ثالث أسطوانى الشكل ارتفاعه ١٥ مترا، ويتألف من جوسق يقوم على ثمانية أعمدة من الجرانيت، تعلوها قبة بداخلها مرايا محدبة الشكل وظيفتها عكس لهيب النيران المشتعلة بالمواقد بأعلى المنار لهداية السفن الضالة فى البحر، وتتوج القبة تمثال ضخم من البرونز، يبلغ ارتفاعه سبعة أمتار يمثل إله البحر بوسيديون، وكان يتخلل جوف المنار طريق صاعد يتسع لفارسين أو ثلاثة، يرقى الراقون من خلاله إلى أعلى المنار، «لايكاد الراقى يعلم فيه هل هو راق أو ماش»[1].

وظل منار الإسكندرية فى العصر الإسلامى موضع اهتمام كل من زار الإسكندرية من الرحالة المسلمين من القاصدين لأداء فريضة الحج من أهل المغرب والأندلس أو من طلاب العلم الذى يسعون إلى السماع على شيوخ العصر فى مختلف مراكز العلم بالمشرق الإسلامى أو التجار الذين يتنقلون فى أنحاء المشرق للتكسب بالتجارة، وواصل المنار أداء وظيفته التى أنشئ من أجلها وهى هداية السفن الضالة فى البحر إلى الأمان، ولكنه

(١) مجهول «كتاب الاستبصار فى عجائب الأنصار» تحقيق د. سعد زغلول عبد الحميد، الإسكندرية ١٩٥٨ ص ٩٦.

تعرض لكثير من الأضرار التى سببتها الزلازل المتعاقبة، فقد تهدم طابقه العلوى فى سنة ١٨٠ هـ نتيجة زلزال عنيف تسبب فى سقوط رأس المنار، وظل كذلك نحو ٨٠ عاما دون ترميم إلى أن تولى أحمد بن طولون ترميمه بأن أقام بأعلاه قبه من الخشب لم تلبث أن تهدمت بعد فترة قصيرة من إقامتها بفعل الرياح العاتية والعواصف[١]. كما تهدم جزء من زاوية المنار الغربية مما يلى البحر فى عهد خمارويه بن أحمد بن طولون، فجدد بناءها[٢]. ويذكر المسعودى أن ما يقرب من ثلاثين ذراعا من أعلى المنار تهدم بتأثير الزلزال العنيف الذى حدث فى أيامه فى شهر رمضان من سنة ٣٤٤هـ[٣]. وقدر للسلطان الظاهر ركن الدين بيبرس أن يقوم ببناء ما تهدم من المنار أثناء زيارته الرابعة لثغر الإسكندرية فى سنة ٦٧٢هـ، فرتب البناء على المشى الذى يدور حول المنار من أدناه عند المطلع[٤]، وأقام مسجدا بأعلى المنار فى الموضع الذى كانت تشغله القبة الطولونية[٥].

كانت أعمال الترميم والإصلاح التى أمر الظاهر بيبرس بتنفيذها ضرورية للحفاظ على سلامة المنار، فقد ذكر السيوطى أن وجه المنار البحرى

---

(١) جلال الدين السيوطى، كتاب حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة، مصر، ١٣٢١هـ، ص ١٤٧ – تقى الدين المقريزى، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، بيروت، ١٩٥٩، ج١، ص ١٥٧ وما يليها. (والنص الذى اعتمد عليه السيوطى منقول من كتاب مباهج الفكر).

(٢) المسعودى، كتاب التنبيه والاشراف، طبعة بيروت، ١٩٦٥، ص ٤٨.

(٣) المسعودى، المصدر السابق.

(٤) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، تحقيق د. قسطنطين زريق، مجلد ٧، بيروت، ١٩٣٨، ص ٣٥ – المقريزى، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، القاهرة، ١٩٥٦، ص ٦١٦.

(٥) المقريزى، المواعظ والاعتبار، ج١، ص ٢٧٧.

كان قد تداعى، كما تداعى الرصيف الذى كان يتقدمه من جهة البحر، وكادا يتهاويان .. ومع ذلك فإن هذه الإصلاحات التى أجريت على المنار لم تجده نفعا بعد زلزال ثالث تعرضت له مصر فى سنة ٧٠٢ هـ فى سلطنة الناصر محمد بن قلاوون، وأحدث أضرار جسيمة بعمران الإسكندرية، وكان من العنف بحيث تسبب فى إنهيار قطاع من السور البحرى يشتمل على ٤٦ بدنة و ١٧ برجا، وأتلف مد البحر قماش التجار بالقصارين[١]، كما تسبب فى طغيان مياه البحر على عمران الإسكندرية[٢]، وأدى تلاطم الأمواج واصطدامها بالجدار البحرى للمنار إلى سقوطه[٣]. فرممه الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير فى العام التالى ٧٠٣هـ. ويبدو أن اصابة المنار كانت بالغة بحيث لم تفده أعمال الترميم، فلم يلبث أن أنهار قسم من الجانب البحرى من المنار بعد سنوات قليلة، ولم يحاول السلطان الناصر محمد بن قلاوون اصلاحه مرة أخرى، ربما لفداحة الأضرار التى ترتبت على الزلزال وتساقط أجزاء كثيرة من الترميمات، ويبدو أنه شرع فى إقامة منار مثله بازائه[٤]، فعاقه الموت عن إتمامه[٥]. وقد شاهد الرحالة المغربى ابن بطوطة

(١) أبو الفداء، المختصر فى أخبار البشر، صيدا، ١٩٥٩، ص ٦٠.

(٢) ذكر السيوطى فى حسن المحاضرة أن البحر طلع «إلى نصف البلد وأخذ الحمال والرجال وغرقت المراكب» (السيوطى، المصدر السابق، ج٢ ص ٢٧٨).

(٣) كان تأثير الزلزال على المنار بالغا، فقد ذكر المقريزى فى السلوك أن المنار انشق وسقط من أعلاه نحو الأربعين شرفة (السلوك، ج١، قسم ٣، ص ٩٤٣).

(٤) ذكر النويرى السكندرى أن صلاح الدين خليل بن عرام والى الإسكندرية فى سلطنة الاشرف شعبان أقام حصنا دائراً حول أساس هذا المنار الجديد الذى لم يكن العمل قد استكمل فيه وركب لهذا الحصن بابا ضخما اقتلعه القبارصة أثناء غزوتهم للإسكندرية فى سنة ٧٦٧هـ.

(٥) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، المسماه تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، طبعة دار صادر – بيروت، بيروت، ١٩٦٠، ص ٢١.

جانبا مهدما من المنار في أثناء زيارته الأولى للإسكندرية سنة ٧٢٥هـ ثم شاهده عند زيارته الثانية لها في سنة ٧٥٠ هـ وقد «استولى عليه الخراب بحيث لا يمكن دخوله ولا الصعود إلى بابه»[١]. ولم يبق من المنار في زمن النويرى السكندرى (سنة ٧٧٥هـ) سوى أطلال دارسة قائمة على أسسه، التى ظلت قائمة حتى أيام المقريزى[٢]. وفى عهد الأشرف قايتباى استغل هذه الأسس الباقية من المنار لبناء قلعته المشهورة الموسومة باسمه حماية للاسكندرية من أى غزو بحرى يتعرض لها من البحر خاصة بعد أن ساءت علاقاته بالدولة العثمانية فتم بناء القلعة ٨٨٤هـ[٣].

كان منار الاسكندرية يحق هداية للقادمين إليها من البحر، فقد كان المؤشر لنهاية رحلة العذاب التى يجتازها المسافرون في البحر، إذ كان ارتفاعه الشاهق مرشدا لقادة السفن المقبلة من بعيد والمتجهة الي ثغر الإسكندرية وعلى مسافة تزيد على سبعين ميلا إلى بر الأمان[٤]. ذلك أن أرض الإسكندرية تخلو من المرتفعات، وظهور المنار للسفن القادمة سواء

(١) ابن بطوطة ، نفس المصدر، ص ٤٠.

(٢) المقريزى، الخطط ج١، ص ٢٧٧

(٣) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى، الإسكندرية، ١٩٨٢، ص ٤٥٨.

(٤) ذكر بنيامين التطيلى أن منار الإسكندرية كان فى زمنه ما يزال يهدى السفن القادمة والراسمة، ويشاهد على بعد مائة ميل نهاراً، وكان ينبعث منه أثناء الليل ضوء ساطع يهتدى به الملاحون. وينكر أركولف المتوفى سنة ٦٨٠ هـ أن المسافرين فى البحر كانوا يشاهدون المنار من مسافات بعيدة، وكان يشتغل فيه بعض الأفراد، يقومون بإشعال المشاعل التي كانت توشد الملاحين إلى البر، ويريهم المدخل إلى الميناء. وقد أشار اليعقوبى إلى هذه المراقيد وذكر أن على المنارة مواقيد توقد فيها النيران، إذا نظر النواظير إلى مراكب فى البحر إلى مسافات بعيدة.

أثناء النهار بارتفاعة الشاهق، أو أثناء الليل بالأضواء التي ترسلها المواقيد بأعلاه، كان يعين الملاحين على الوصول إلى بر الإسكندرية. وكثيرا ما أنقذ منار الإسكندرية في العصر الاسلامي سفناً كانت قد ضلت طريقها الي الثغر ، وتلاعبت بها العواصف والأنواء ، وعرضتها لغرق محتوم ، ولكن رؤية ركابها وملاحيها للمنار كان ينقذها من هذا المصير.

ويهمني أن أعرض رؤية بعض الرحالة المغاربة للمنار، فاخترت منهم رحالتين وصلا الي الثغر السكندري عن طريق البحر ، أولهما أندلسي هو أبو الحسن محمد بن أحمد البلنسي المعروف بابن جبير، الذي زار الإسكندرية في عهد السلطان الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب[1]، والثاني مغربي من أصل أندلسي غرناطي هو أبو البقاء خالد بن عيسي البلوي الذي رحل إلي الحجاز لأداء فريضة الحج في ١٨ صفر سنة ٧٢٦ هـ وأبحر من تونس الي الإسكندرية وشاهد المنار السكندري قبل انهياره تماما بسنوات معدودة، وقد عبر كل من الرحالتين بصدق عن حالة اليأس والقنوط من النجاة التي كانت تسيطر علي ركاب سفينتيهما وذلك عندما أيقن الجميع بالهلاك ، الي أن ظهر منار الإسكندرية ، فنزل خبر ظهوره بردا وسلاما عليهم، واستشعروا عند رؤيتهم له علي بعده بالأمان، ويشهد بذلك الرحالة الأندلسي ابن جبير في قوله : «ومن أعظم ما شاهدناه من عجائبها (أى الإسكندرية) المنار الذى وضعه الله عز وجل على يدى من سخر لذلك آية

(١) سجل ابن جبير ملاحظاته عن المنار والدور الذى يقوم به فى رحلته الأولى الى المشرق فيما بين عامى ٥٧٨هـ، ٥٨١ هـ (السيد عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب الإسكندرية، ١٩٨٧ ص ٢٢٠ وما يليها).

للمتوسمين، وهداية للمسافرين، لولاه ما اهتدوا في البحر إلى بر الإسكندرية، ويظهر على أزيد من سبعين ميلاً»[1].

ويقول في موضع آخر عند وصوله إلى الإسكندرية في رحلته الأولى: «وفي صبيحة يوم السبت التاسع والعشرين من الشهر المذكور (شهر مارس سنة ٥٧٨ هـ) أطلع الله علينا البشرى بالسلامة بظهور منار الإسكندرية على نحو العشرين ميلا والحمد لله على ذلك حمدا يقتضي المزيد من فضله، وكريم صنعه»[2].

كذلك يشهد الرحالة المغربي الأندلسي خالد بن عيسى البلدي في رحلته إلى المشرق الإسلامي في سنة ٧٣٦ هـ الموسومة بتاج المفرق في تحلية علماء المشرق بدور منار الإسكندرية في هداية السفن إلى بر الأمان، وذلك بعد صدوره من قبرص في طريقه إلى الإسكندرية، يصور البلوي حالة اليأس والقنوط التي استولت على ركاب سفينته، وذلك عندما أيقن الجميع بالهلاك، إلى ظهر منار الإسكندرية فاستشعر المسافرون عند رؤيته بالأمان، وفي ذلك يقوم البلوي : «فما انفصلنا عنها (يقصد جزيرة قبرص) إلا وقد أدركهم الجهد والإعياء، ولحقهم العطش الشديد والعناء، وقد كانوا رموا جميع ما كان بقي لهم من الماء المعد للشرب، فطلبت قطرة من الماء توجد، فما رض ضلوعي، ولا فض دموعي إلا أطفال يضطربون بالبكاء، ويستغيثون من العطش ومن الماء حتى أشرف الناس على الهلاك بالعطش، وتجرع

---

(١) ابن جبير، رحلة ابن جبير، تحقيق وليام رايت، ليدن، ١٩٠٧، ص ٤١.

(٢) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ٣٨.

بعضهم من ماء البحر، فكنت أراهم مطروحين يعالجون سكرات الموت، فتمكن اليأس، وعظم البأس، وسقط فى أيدى الناس فضجوا بالدعاء ونقص لهم النصف من تلك الجرعة التى كانوا يأخذونها من الماء، واختلفت إليهم أنواع الهلاك والبلاء، فلما رأيت تلك الشدة، جمعت الأصحاب من قراء القرآن، فاجتمع منهم نحو الثلاثين رجلا، فقلت لهم ما لنا إلا الالتجاء إلى الله عز وجل، وأتوسل إليه بكتابه وبرسوله، فصلينا العشاء الأخيرة، وقسمت عليهم القرآن مجزءا، وأقمنا على التلاوة والقراءة ليلتنا تلك، فلم يكن إلا أمد يسير وشفع الله فينا كتابه العظيم ونبيه الكريم، وهبت ريح سرنا بها حتى أنعم الله سبحانه وظهر منار الإسكندرية، فأعلم الناس بذلك، فضجوا سرورا بالدعاء والبكاء، وأعلنوا بالحمد والشكر لله تعالى والثناء، وكادوا أن يقضى عليهم ذلك الأمل، ومن فرح النفس ما يقتل.

خفقت قلوبهم سرورا بعدما ∴ باتوا بأفئدة يراع خوانق

فما رأيت قبلها بشارة أحلى فى النفوس، وأوقع فى القلوب، ولا أعظم سرورا من سرور الخلق بها فى تلك الساعة، وما ظنك بساعة أعلنت بالكرم والجود، وأعلمت بالخروج من العدم إلى الوجود، وفيها نطق لسان الشكر بما تيسر على الفكر، فقلت :

بشراكم لاح المنار الأسعد ∴ ودنا على اليأس المرام الأبعد

وتنفس الكرب الذى كنا به ∴ فى حالة البلوى نقوم ونقعد

وافتر من إسكندرية ثغرها ∴ الوضاح فهو منظم ومنضد

... وأقبلنا الساحل قاصدين تائبين من ركوب البحر أبد الآبدين»[1]

لم يكن غريبا أن ترسخ صورة منار الإسكندرية فى مخيلة المسافرين بحرا من أهل المغرب والاندلس إلى الإسكندرية، وكان من بينهم تجار وصناع وعرفاء بناء، فقيه يتمثل طوق النجاة من الغرق أو الهلاك، وكان طبيعيا أن يصبح منار الإسكندرية أنموذجا صارخا قلدوا صورته التى ارستموها فى مخيلتهم سواء من حيث المظهر الخارجى العام بأبراجه الثلاثة المتراكبة، كما يتمثل فى صومعتى جامع القيروان وجامع سفاقس، أو من حيث تكوينه الداخلى كما هو الحال فى الصوامع التوأم الثلاثة من عصر الموحدين لجامع الكتبية بمراكش، وجامع القصبة الكبير بإشبيلية، وجامع حسان بالرباط : ففى هذه الصوامع الثلاثة يرتقى الراقون إلى أعاليها عبر طريق صاعد يدور حول النواة الداخلية التى تشغلها غرف متراكبة الواحدة فوق الأخرى على غرار ما كان يحتويه منار الإسكندرية مع الفارق الكبير فى عدد غرف هذا المنار. وقد وصف المؤرخ المغربى عبد الواحد المراكشى الذى كان معاصرا للموحدين صومعة جامع حسان بالرباط، فذكر أنها «فى نهاية العلو على هيئة منار الإسكندرية يصعد فيها بغير درج، تصعد الدواب بالطين والآجر والجص وجميع ما يحتاج إليه إلى أعلاها»[2].

وتتفق كل من صوامع الرباط ومراكش وإشبيلية الثلاثة - رغم

---

(١) البلوى، تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق، ج١، ص ١٦٩.

(١) عبد الواحد المراكشى، المعجب فى تلخيص اخبار المغرب، تحقيق الأستاذان محمد سعيد العريان ومحمد العربى العلمى، القاهرة، ١٩٤٩، ص ٢٦٦.

اختلاف مواد البناء – من حيث التخطيط الداخلي، حيث يدور حول النواة المركزية المربعة التي تشغل قلب الصومعة وتضم غرفا مقببة متراكبة، طريق صاعد أكثر اتساعا في صومعة جامع حسان بالرباط عنه في صومعة جامع إشبيلية، كما تتفق في التشكيلات الزخرفية القائمة على شبكات المعينات المنبثقة من عقود مفصصة أو ثعبانية الشكل، ويتمثل الاختلاف بين هذه الصوامع الثلاثة بالإضافة إلى مواد البناء، في عدد الغرف المتراكبة بكل منها، وفي أن صومعة جامع إشبيلية بزخارفها الرأسية ورشاقتها توحي بالصعودية بخلاف الصومعتين المغربيتين، وفي طول قاعدة كل منها[1].

ومن الواضح أن اشتراك الصوامع الثلاثة في الطريق الصاعد يؤكد أن عرفاء البناء الموحدين الذين أسهموا في بناء هذه الصوامع ومنهم على الغماري وأحمد بن باسه وأبو داود جلداسن امتثلوا منار الإسكندرية الذي كان مصدر الإلهام في استخدامهم للطريق الداخلي الصاعد بدلا من الدرج وفي ضخامة بنيان هذه الصوامع وارتفاعها الكبير وفي الغرف الموزعة في النواة المركزية، وهذا يفسر في حد ذاته أن هذه الصوامع كانت في نفس الوقت مآذن لمساجدها الجامعة ومنارات للهداية إلى المدن التي أقيمت فيها، يراها المسافرون من البر كما يرونها من البحر بالنسبة لمنارة جامع حسان.

أ.د. السيد عبد العزيز سالم

استاذ التاريخ الإسلامي والحضارة والآثار الاسلامي المتفرغ

ومدير معهد دراسات البحر المتوسط بكلية الآداب

جامعة الإسكندرية

---

(١) تتخذ قاعدة صومعة جامع إشبيلية شكل مربع طول كل جانب منه ١٢,٦٥ متر بينما يصل طول الجانب الواحد من قاعدة صومعة جامع حسان ١٦,١٥ متر.